الفصل الخامس

أعلام الشعراء

١

بشار [١]

وُلد بشار بن بُرْد بن يَرْجوخ [٢] بالبصرة لأوائل العقد العاشر من القرن الأول للهجرة . وجَدُّه يرجوخ من طُخارُسْتان ممن سَباهم المهلب بن أبى صفرة والى خراسان (٧٩ — ٨١هـ) . ومن أجل ذلك نشأ ابنه بُرْد على الرق ، وكان أولا فى عداد رقيق خيرَة القُشَيْرية امرأة المهلب ، ثم وهبته لامرأة من بنى عُقَيْل ، وفى ملكها وُلد له بشار على الرق ، ولم تلبث العُقَيْلية أن أعتقت بُرْدًا . وبذلك عُدَّ هو وابنه فى موالى بنى عُقَيْل . وقد نسب نفسه من جهة أمه إلى الروم ، إذ يقول [٣] :

وقيصرٌ خالى إذا عددتُ يوماً نَسَبى

وإن صح ذلك كان فارسىّ الأب رومى الأم ، وقد ذكرها حماد عجرد فى بعض أهاجيه لبشار باسم غزالة [٤] ، وقد ولدته أعمى فما نظر إلى الدنيا قط ، وفى ذلك يقول [٥] :

---

(١) انظر فى بشار وترجمته الأغانى (طبعة دار الكتب) ٣/١٣٥ ، ٦/٢٤٢ والشعر والشعراء ص ٧٣٣ وابن المعتز ص ٢١ وتاريخ بغداد ٧/١١٢ والمختار من شعر بشار للخالديين (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) والموشح للمرزبانى ص ٢٤٦ ونكت الهميان (طبعة المطبعة الجمالية بالقاهرة) ص ١٢٥ ومرآة الجنان لليافعى ١/٣٥٤ وشذرات الذهب ١/٢٦٤ وابن خلكان ومراجعات فى الآداب والفنون للعقاد ص ١١٩ وحديث الأربعاء لطه حسين ٢/٢٣٢ وكتابنا الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (طبع دار المعارف) ص ١٤٨ وكتاب بشار بن برد للمازنى (طبع عيسى الحلبى) وبشار ابن برد لعمر فروخ (طبعة بيروت) وبشار بن برد لطه الحاجرى (طبع دار المعارف) . وقد طبع من ديوانه ثلاثة أجزاء بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) ذهب بعض الرواة إلى أن اسم جده بهمن . انظر الأغانى ٣/١٣٥ .

(٣) الديوان ١/٣٧٧ .

(٤) الحيوان ١/٣٥٤ ، ٤/٤٥٣ .

(٥) أغانى ٣/١٤٢ .

عميتُ جَنِيناً والذكاء من العَمَى فجئتُ عجيبَ الظَّنِّ للعلم موئلا

وكان أبوه طَيَّانا يعيش من ضَرْبِ اللَّبِنِ معيشة تقوم على الشظف ، ويقال إنه كان له أخوان : بشر وبشير ، وكانا قَصَّابين يبيعان اللحم ، ولم يكونا سَوِيَّيْن إذ كان أحدهما أعرج والآخر أبْتَرَ اليد .

وحدَّدَتْ آفة بشار حياته منذ نعومة أظفاره ، فاتجه إلى المساجد وإلى مِرْبد البصرة ينهل من حلقات العلم والشعر ، وأعانته نشأته فى بنى عُقَيْل على أن يتمثل السليقة العربية . ولم يكد يبلغ العاشرة حتى أخذ ينبوع الشعر يسيل على لسانه . وكان الهجاء حينئذ يضطرم فى موطنه اضطراما لا بين جرير والفرزدق فقط ، بل بين جميع الشعراء ، فكان طبيعيًّا أن يكون أول موضوع ينظم فيه الغلام . ويقال إن أباه كان يضربه بسببه ضربًا مبرحا لكثرة ما يشكو الناس منه ، وكانت أمه لا تزال تستعطفه عليه ، فيقول : إنى لأرحمه ، ولكنه يتعرض للناس ، فقال له بشار : قُلْ لهم : أليس الله يقول : (ليس على الأعمى حَرَجٌ) . وعادوا إلى بردٍ يرددون شكواهم ، فتلا عليهم الآية الكريمة ، فانصرفوا وهم يقولون : فَقِهْ بُرْدٌ أغْيَظُ لنا من شعر بشار . واشتد ببشار طموحه إلى إتقان العربية ، فيمَّم نحو البادية ، فأقام فيها فترة مكَّنت له فى عربية لسانه وفقهه الدقيق باللغة وشئون البادية .

وعاد إلى البصرة يكثر من الاختلاف إلى حلقات المتكلمين ومجالسهم ، كما يكثر من النظم فى المديح وغير المديح ، ومن أقدم مدائحه ما نظمه فى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والى العراق سنة ١٢٦ للهجرة[١] . ولما خطب واصل بن عطاء رأس المعتزلة بين يدى هذا الوالى مع بعض الخطباء البلغاء أشاد به وببيانه طويلا[٢] ، مما يدل على أن صلة وثيقة كانت منعقدة بينهما ، وفى الأغانى أنه كان يحضر مجالسه ويستمع إلى محاوراته مع مَنْ يعتنقون مذاهب الثَّنَوِيَّة المجوسية والدهرية الهندية[٣] ، وأكبر الظن أنه تسرب إليه من هذه المجالس وما يماثلها من مجالس المتكلمين شىء من الفلسفة والمنطق على أن الأمور لم تلبث أن فسدت بينه وبين

---

(١) الديوان ٣/١٧٢ .
(٢) البيان والتبيين ١/٢٤ .
(٣) أغانى ٣/١٤٦ .

واصل إذ عرف فيه أنه يدين بالرّجْعة أو عودة الإمام المختفى ويكفّر جميع الأمة، وتتابع منه ما يشهد على إلحاده من مثل قوله يشيد بعبادة النار وأنها أفضل من الأرض والطين (١) :

الأَرضُ مظلمةٌ والنارُ مشرقةٌ والنارُ معبودةٌ مذ كانت النارُ

وتمادى يفضّل إبليس المخلوق من النار على آدم المخلوق من الطين ، قائلا (٢) :

إبليسُ أفضلُ من أبيكم آدمٍ فتنبَّهـوا يا معشرَ الفُجَّارِ
النارُ عُنْصُرُهُ وآدمُ طينةٌ والطينُ لا يَسْمو سموَّ النارِ

وتصدّى له صفوان الأنصارى شاعر المعتزلة يردُّ عليه وعلى ما رمى إليه من تصويب رأى إبليس فى عدم سجوده لآدم وعصيانه لأمر ربه حين طلب إليه هذا السجود ، لأن النار ، فى رأيه هو وأضرابه من الزنادقة الذين كانوا يقدسونها ، خير من الأرض . وأطال صفوان فى تفضيل الأرض وذكر له العلة التى بعثته على تفضيل النار وأنها ليست إلا حقده وموجدته على الدين الحنيف ، قائلا (٣) :

كأَنك غضبانٌ على الدين كلِّه وطالبُ ذَحْلٍ لايبيت على حِقْدِ (٤)

غير أن بشارا مضى يُعْلن زندقته لا يزدجر مصرحًا بأنه لا يؤمن إلا بالعِيان وما شهده الحس (٥) . فهو لا يؤمن بجنة ولا نار ولا ببعث ولا حساب ، ويحاول أن يثير الغبار فى وجه واصل وغيره من المعتزلة ، فيعلن أنه يعارض ما يذهبون إليه من أن الإنسان يخلق أفعاله ، ويقول إنه جَبْرِىٌّ ، بل لا شىء سوى الجبر وتعطيل الإرادة الإنسانية (٦) .

وكل ذلك جعل واصل بن عطاء يثور عليه ثورة شديدة ، وكان مما زاد هذه الثورة فى نفسه اضطراما أن رآه يكثر من غزل مادىٍّ آثم يُعَدُّ خطراً أى خطر على شباب البصرة ونسائها (٧) ، فهتف به فى بعض خطبه الواعظة داعيًا إلى قتله

---

(١) البيان والتبيين ١/١٦ والأغانى ٣/١٤٥.
(٢) رسالة الغفران لأبى العلاء (نشر كامل كيلانى) ٢/١٣٧ .
(٣) البيان والتبيين ١/٢٩ .
(٤) ذحل : ثأر.
(٥) أغانى ٣/٢٢٧ .
(٦) نفس المصدر والصفحة .
(٧) أغانى ٣/١٨٢ .

بمثل قوله : « أما لهذا الأعمى الملحد المشنَّف[١] المكنَّى بأبى معاذ من يقتله[٢] ؟ ! »
وتعاون واصل وأتباعه من معتزلة البصرة أمثال عمرو بن عبيد على طرده عن مدينتهم ،
وكان الخوف قد بلغ من نفس بشار ، فبارحها وظل غائبًا عنها حتى توفى عمرو[٣]
ابن عبيد خليفة واصل سنة ١٤٤ للهجرة . وتراه يقصد إلى حرَّان فى سنة ١٢٧
فيمدح سليمان[٤] بن هشام بن عبد الملك إلا أنه لا ينيله ما كان يؤمله[٥] ، فيتجه
إلى واسط ، حيث يزيد بن عمر بن هبيرة والى العراق لعهد مروان بن محمد وزعيم
قيس ، فيستقبله استقبالا حافلا ، ويغْدِق عليه من برِّه وصلاته السنية[٦] ،
ويُغْدق عليه بشار من شعره ، وكان يزيد يتعصب لقومه من قيس تعصبًا قويًّا ،
وصادف ذلك هوى فى نفس بشار إذ كان ولاؤه لبنى عُقَيل القيسيين ، وكان
مروان بن محمد يؤثر قيساً على بقية القبائل العربية ويعتمد عليها فى حروبه مع
الثوار من بنى عمه وغيرهم ، فاندفع بشار يمدح ابن هبيرة ويفخر بقيس ومواليه
القيسيين فخراً عارما .

ولم تلبث رايات العباسيين السوداء أن أقبلت فى سنة ١٣١ للهجرة من خراسان ،
وطوَّحت جيوشهم ببنى أمية ووليهم يزيد ، وانعقد لسان بشار شاعر خصومهم
فلم يستطع أن يفد على السفاح ولا على المنصور ، وكان نجم خالد بن برمك آخذاً
فى التألق إذ استوزره المنصور ثم ولاه ولاية فارس ، وكأنما رأى فيه بشار لحمة نسب
تصله به إذ كان إيرانيًّا مثله ، فوفد عليه يمدحه ، وخالد يجزل له فى العطاء
والإكرام[٧] . ويحس بشار فى عمق بإقبال الدنيا عليه ، فيتغنَّى بشعوبيته ويفخر
بقومه الفرس فخراً مسرفاً .

ويعود إلى البصرة بعد وفاة عمرو بن عبيد ، ولا يكاد العام يستدير حتى يثور
العلويون بزعامة إبراهيم بن عبد الله سنة ١٤٥ للهجرة ، ويخيل إليه أن الانتصار
من إبراهيم وثورته قاب قوسين أو أدنى فيمدحه بقصيدة ميمية رائعة ، وسرعان

---

(١) المشنف : ذو القرط ، يقال إنه كان يلبس قرطاً وهو صغير فلقب بالمرعث من الرعاث وهو القرط . وإلى ذلك يشير واصل . انظر الأغانى ٣/١٤٠ .
(٢) البيان والتبيين ١/١٦ والأغانى ٣/١٤٦ .
(٣) البيان والتبيين ١/٢٥ .
(٤) الديوان ١/٢٩١ والأغانى ٣/٢١٧ .
(٥) اغانى ٣/٢١٨ .
(٦) أغانى ٣/٢٣٦ — ٢٣٧ .
(٧) أغانى ٣/١٩٢ .

يا منظَرًا حسناً رأيتُه ... من وجه جاريةٍ فديتُه
بعثتْ إلىَّ تَسُومنى ... بُرْدَ الشباب وقد طويتُهْ
واللهِ ربِّ محمَّـدٍ ... ما إن غدرتُ ولا نويتُه
أَمسكتُ عنك وربما ... عرض البلاءُ وما ابتغيته
إن الخليفة قد أَبَى ... وإذا أَبى شيئاً أَبيتُه
ونهانىَ الملك الهما ... مُ عن النَّسِيب وماعصيته

وكان ذلك يؤذى الخليفة منه إذ كان يراه لا يكفُّ عن الغزل ، وترامت إليه زندقته وما يَغْرِق فيه من مجون ، فحرمه جائزته ، ولانصل إلى سنة ١٦٦ حتى يتعقب المهدى الزنادقة ويقتل منهم خلقاً كثيراً ، ويلزم بشار البصرة إشفاقاً على نفسه ، غير أنه لا يصمت ، بل يأخذ فى رثاء أصدقائه الذين يُقْتَلون على الزندقة[١] ، ويهجو المهدى ووزيره يعقوب بن داود هجاء مقذعا[٢] ويَقْدُم المهدى إلى البصرة فى سنة ١٦٨ فيشهد أمامه شهود موثَّقون بأن بشارا زنديق ، حينئذ يأمر بضربه حتى التلف ، فيُضْرَبُ سبعين سوطاً يموت على إثرها ويُرْمَى به فى البَطيحة ، ويجىء بعض أهله فيحملونه ويدفنونه .

وأخبار بشار فى أسرته قليلة ، ويدلُّ هجاء حماد عَجْرَد له أنه كان له امرأة تسمَّى أمامة[٣] ، وهو يُكْثِر فى أشعاره من ذكر أطفاله الصغار يستعطف بهم ممدوحيه حتى يضاعفوا له الجائزة[٤] ، وقد حزن حين اختطف منه القدر ابنه محمدا[٥] ، واختطف منه بنتاً صغيرة[٦] . ومر بنا فى غير هذا الموضع أنه كانت له جارية تسمى رَبابة ، وكانت له جارية أخرى سوداء ، وفيها يقول[٧] :

وغادةٍ سوداءَ بَرَّاقَةٍ ... كالماء فى طيبٍ وفى لينِ

---

(١) أغانى ٣/٢٣٤ والمختار من شعر بشار ص ٢٥ وأمالى المرتضى ٢/١٣٣ .
(٢) أغانى ٣/٢٤٣ .
(٣) أغانى ١٤/٣٦٥ .
(٤) الديوان ١/٢٣٩ .
(٥) أغانى ٣/١٦١ ، ٢٢٠ ، وانظر الديوان ١/٢٥٦ .
(٦) أغانى ٣/٢٢٩ .
(٧) أغانى ٣/١٩٣ .